السياقُ الأسلوبيُّ وأثرهُ في التقديم والتأخير في المتعاطفات في القرآن الكريم

د. عزالدين محمد أمين سليمان (*)

ملخص البحث

يتضمن هذا البحث اثر السياق الأسلوبي في التقديم والتاخير في المتعاطفات في القرآن الكريم، ويظهر التقديم والتأخير في المتعاطفات في أسلوب القرآن الكريم في بعض الآيات الثنائية المتشابهة في جوانب كثيرة. وقد قمنا بدراسة تلك الآيات، وتحليلها تحليلا لغويّا أسلوبيا، وعلاقتها بالآيات السابقة أو اللاحقة المتساوقة معها، وصولاً إلى معرفة أسباب هذا النوع من التقديم والتأخير، وذلك خدمة لهذا الكتاب العزيز، وتبيانا لإعجازه اللغوي في أسلوبه المتين.

(*) - أستاذ مساعد _ قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة صلاح الدين _ اربيل.

مقدمة

الحمد لله الذي فضّلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يؤتِ أحدا من العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن القرآن الكريم معين لا ينضب، فليس من الممكن أن يصل الباحثون والدارسون في محيطه إلى قرار، لما يزخر به من بواعث الأفكار وفنون القول، ولما ينفرد به من سمو الأساليب ومعجز التراكيب. وهذا البحث الذي عنوانه: "أثر السياق الأسلوبي في التقديم والتأخير في المتعاطفات في القرآن الكريم" محاولة متواضعة منّا لفهم بعض الجوانب المضيئة –وما أكثرها– في الآيات التي وقع فيها التقديم والتأخير بين المعطوف والمعطوف عليه في أسلوبه المعجز. وقد اقتضى منهجنا الاعتماد على دراسة النصوص القرآنية التي حدث فيها التقديم والتأخير في المتعاطفات، وتحليلها، وعقد الموازنات بين كل نصين متشابهين وقع بينهما التقديم والتأخير في المتعاطفات.

ونحن لا ندعي في ما قدمناه الكمال، لأن الكمال لله وحده، وحسبنا أننا قدمنا خدمة لكتاب الله العزيز.

ومن الله التوفيق.

تمهيد

القرآن الكريم معجز بنظمه وأسلوبه الذي يفوق أساليب البشر، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه[١]، ولا تـُملّ قراءته ما دامت الحياة. لذا أطال العلماء والباحثون –وما زالوا- الوقوف، ودققوا النظر في جوانبه المضيئة على تعددها، يتأملون معانية، ويتذوقون أساليبه، ويقدحون زناد فكرهم فيما تشتمل عليه آياته من روائع النظم وعجيب التراكيب، وما يوحي به من دلالات وتأملات، لأن فهم القرآن الكريم لا يتأتّى إلا من خلال فهم دقيق لنظمه وأسلوبه وللمكوّنات الرئيسة لعبارته اللغوية المؤدية لدلالاته المطلوبة المفهومة. وقد زخر أسلوب القرآن الكريم بثروة هائلة من هذه المكوّنات التي تكتسب شخصياتها من خلال شبكة العلاقات الشكلية والمعنوية داخل النظم، فالمعنى الخاص بالمكوّن اللغوي خارج النظم قد يتغير داخل النظم، فتكون له دلالة جديدة، وقد يجتمع اكثر من مكوّن واحد على دلالة واحدة "ثم ان تلك الدلالة قد تبقى ثابتة، وقد تتسع، أو تضيق، وقد تتحول عن المعنى الذي كانت تدل عليه لتدل على معنى آخر"[٢].

واللغة تؤدي وظيفتها بترتيب المفردات وتركيبها لتبلغ غايتها في الإفادة وهي الإفهام، لأن التركيب اللغوي يقوم منطقياً على ترتيب الكلمات، وإن هذا الترتيب يعبّر عن حاصل الفكرة وتحليل القول، وليست هناك لغة تتميز بحرية ترتيب عناصرها، فكل عنصر تتحدد علاقته بالذي يجاوره.

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٣.

(٢) نحو وعي لغوي: ١٠٨.

ويأتي التقديم والتأخير في المتعاطفات في هذا الإطار التنظيمي ليحدث تغييرا في بنية التركيب على وفق قواعد تحويلية لتحقيق غرض جديد، إذ إن أي تعديل في نظام ترتيب الكلمات في التراكيب يُحدث تغييرا في المعنى. وليس تقديم كلمة على أخرى في الآية القرآنية صناعة لفظية فحسب "ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختلّ وانهار"(٣).

ومطلبنا من بحثنا في أثر السياق الأسلوبي في التقديم والتأخير في المتعاطفات في القرآن الكريم تحليلُ الجوانب الإبداعية التي تكشف عن منبع من منابع الإعجاز القرآني، وتحديد معالمه التعبيرية، وطرائق استعمالاته المتباينة على وفق أسس لغوية تبيّن روعة الأداء التركيبي والدلالي والأسلوبي، الذي يوضّح خروج نظم القرآن عن نظوم كلام الناس.

الإسناد

قال سبحانه وتعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)(٤)، وقال سبحانه وتعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)(٥).

مما نعرفه في دراسة خصائص البيان القرآني أن أسلوب العطف مما تتجلى فيه طبيعة الإعجاز، فهو يبث في البيان تناسقاً تعبيرياً وتلازماً نابعاً من الإعراب المشترك، ونشير هنا إلى الحق الذي كان عليه الكوفيون في تعبيرهم عن العطف

(٣) بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ١٠٧.

(٤) الأنعام ـ آ: ٣٢.

(٥) العنكبوت ـ آ: ٦٤.

بمصطلح: "النسق"، لأن الثاني يشاركُ الأول ويسايره في إعرابه[٦]. وهو يؤدي في الوقت نفسه وظيفة مهمة في إيجاد السياق الفني الذي تكتسب فيه الكلمات ارتباطاً جديداً، يخرج بها عن ارتباطها المعتاد، أو يوظف هذا الارتباط من اجل تحقيق سياق جديد[٧]، وهذه الحقيقة اللغوية تكشف لنا عن سرّ تأخير اللهو عن اللعب في الآية الأولى وتقديمه عليه في الآية الثانية مع اتحاد الموضع، وهو الكلام عن الحياة الدنيا في الموضعين، واختلاف الموقف. وقد وقع المتعاطفان: (لَعِبٌ) و (لَهْوٌ) في الآيتين موقع الإسناد. واللعب: ضد الجد، ويقال لكل من عمل عملاً لا يجدي عليه نفعاً: إنما أنت لاعب[٨]. واللهو: ما لهوت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما، ولهيت عن الشيء ألهي، إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه واشتغلت[٩]. واللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، ويقال: لها يلهو، ولهى عن كذا:صرف نفسه عنه[١٠]. وقيل اللعب: ما رغّب في الدنيا، واللهو: ما ألهى عن الآخرة، أي شغل عنها[١١]. واللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان الشباب[١٢]، فاللعب متقدم في الوجود الدنيوي على اللهو، فلما لم يبرح الكفار والمشركون عن الجري على مهيع الصم الكم الذين لا يعقلون، وأنكروا البعث بعد الموت في قولهم: (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[١٣]، جرى

---

(٦) شرح المفصل: ٨/ ٨٨.

(٧) بلاغة العطف في القرآن الكريم: ١٥٥.

(٨) لسان العرب: ١٢ / ٢٨٧ مادة: لعب.

(٩) المصدر نفسه: ١٢ / ٣٤٧ مادة: لها.

(١٠) البحر المحيط: ٤ / ٨٥.

(١١) الجامع لحكام القرآن: ١٧ / ٢١٨.

(١٢) البرهان في علوم القرآن: ١ / ١٢١؛ بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز: ١ / ١٩٣.

(١٣) الأنعام – آ: ٢٩.

الإخبار عنهم بمقتضى أحوالهم في أعمارهم التي لم تخرج عن أحوال البهائم، فأول أعمارهم لعب، وعقب ذلك لهو "فورد الإخبار على حسب جري الأعمار، وأنهم اعتمدوا البقاء مع مقتضى الطبع الإنساني.... وهذه الحال هي التي نبّه –سبحانه وتعالى– عبادة المؤمنين على أنها حال الحياة الدنيا وصفتها التي تمتاز بها، فأعلم بذلك ليتجنبوها ويحذروا غرورها"(١٤)، فقال سبحانه وتعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ).

وأما الآية الثانية فإنها تقدم قبلها قوله سبحانه وتعالى: (وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)(١٥)، ولا يُسأل عن هذا ويجيب إلا من جاوز سنّ اللعب وبلغ السن التي فيها يتعلق التكليف بالمخاطب، ويصح خطابه وعتابه على تفريطه فناسب ذلك من ذكر الحياة الدنيا تقديم ما يساوق تلك السن، فقدم اللهو على اللعب، فقال سبحانه وتعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) ليناسب، وليحصل "ذكر ما نعهم من الاستجابة وتكميل النظر المخلص لهم"(١٦). ثم ختم –سبحانه– هذه الآية بقوله: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(١٧)، فوصف الدار الآخرة بأنها (الْحَيَوَانُ). والحَيَوان: مصدر الفعل: "حيّ" (١٨) كالحياة، لكن فيها مبالغة وزيادة معنى ليس في "الحياة"(١٩)، وهو ما في بناء صيغة: "فَعَلان" من

(١٤) ملاك التأويل: ١ / ٤٤٦.

(١٥) العنكبوت – آ: ٦١.

(١٦) ملاك التأويل: ١ / ٤٤٨.

(١٧) العنكبوت – آ: ٦٤.

(١٨) الكشاف: ٣ / ٢١١.

(١٩) التفسير الكبير: ٢٥ / ٩٢.

معنى الحركة والاضطراب، كالنَزَوان، والنّغَصان، واللّهَبان[٢٠]. والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دالّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، أي: "ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها، فكأنها في ذاتها حياة"[٢١].

قال سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٢٢]، وقال سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٢٣]، قدّمَ (النصارى) في الآية الأولى على المعطوف: (الصابئين)، وفي الآية الثانية جرى عكس ذلك، فقدّم (الصابئون) على المعطوف: (النصارى).

قيل: إن التقديم في الآية الأولى على ترتيب الكتب المنزلية، عدا أن المؤمنين أحق بالتقديم من غيرهم، وهم المقصودون بالخطاب والمتكلم معهم، فهم من حيث أحوالهم معظم من قصد بالخطاب[٢٤]، ثم ذكر اليهود، ثم النصارى، ثم الصابئين، فهم ليسوا أهل كتاب، وقد استحدثوا ديناً سوى دينهم، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئاً[٢٥]، ولذلك أخر ذكرهم عن غيرهم.

---

(٢٠) شرح شافية ابن الحاجب: ١/ ١٥٦.

(٢١) الكشاف: ٣/ ٢١١.

(٢٢) البقرة ـ آ: ٦٢.

(٢٣) المائدة ـ آ: ٦٩

(٢٤) ملاك التأويل: ١/ ٢١٩.

(٢٥) جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠، لسان العرب: ٧/ ٢٦٩ مادة: صبأ.

وتقديم (الصابئون) على (النصارى) في الآية الثانية جاء على ترتيب الأزمنة، لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين عن النصارى بأنهم لا كتاب لهم، فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم، لأنهم كانوا قبل سيدنا عيسى عليه السلام(٢٦).

وقد قطع (الصابئون) هنا من النصب إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف والنية به التأخير بعد خبر (إنّ)، وتقديره: "ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك"(٢٧).

قال سيبويه (ت ١٨٠هـ): "وأما قوله عز وجل: (وَالصَّابِئُون) فعلى التقديم والتأخير، كأنه ابتدأ على قوله: (والصابئون) بعد ما مضى الخبر"(٢٨)، وانشد في ذلك قول الشاعر بشر بن أبي خازم(٢٩).

وَإلا فَاعْلَمُوا أنـّا وأنـْتُمْ   بُغاةٌ ما بَقِينا في شِقاق.

ثم قال: "كأنه قال: بغاة ما بقينا وأنتم"(٣٠).

وفي توسط (الصابئون) بين اسم (إنّ) وخبرها، وقطعه إلى الرفع دلالة" على أن الصابئين مع ضلالتهم وزيغهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن آمنوا وعملوا صالحاً، فما الظن بغيرهم" وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدّهم

---

(٢٦) درة التنزيل: ٢١.

(٢٧) التبيان في تفسير القرآن: ٣ / ٥٩٢، التبيان في إعراب القرآن: ١ / ٤٥١، التفسير الكبير: ١٢ / ٥١؛ الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢٣٢.

(٢٨) الكتاب: ٢ / ١٥٥.

(٢٩) ديوانه: ١٦٥.

(٣٠) الكتاب: ٢ / ١٥٦، وينظر: أسرار العربية: ١٥٤، شرح المفصل: ٨ / ٦٩ ـ ٧٠.

غيّاً، وما سمّوا صابئين إلاّ لأنهم صبئوا عن الأديان كلـها، أي: خرجوا"[٣١]. وقـال أحمد بن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣هـ): "لِمَ عدل إلى الرفع، وجعل الكلام جملتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادي؟.... لو نصبه وعطفه لـم يكـن فيـه إفهام خصوصية، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفـردات، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنـها واحد، وأمـا مـع الرفـع فينقطـع عـن العطـف الإفرادي، وتبقى بقية الأصناف مخصصة بـالخبر المعطـوف بـه، ويكـون خـبر هـذا الصنف المنفرد بمعزل تقديره مثلاً: والصابئون كذلك، فيجيء كأنه مقيس علـى بقيـة الأصناف وملحق بها"[٣٢].

وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز في النظم القرآني، الذي جاءت فيه كـل كلمـةٍ في مكانها كاللبنة في البناء بما يُشعر بأن غيرها لا يصلـح فيـه ولـو تقـارب المعنـى، لأن لكل كلمةٍ دلالة خاصة، وإيحـاءً خاصـا، وانسجاماً فـي الـتركيب، بحيث تتـآلف الكلمات في القرآن الكريم في اتساق حسن وتاليف بديع[٣٣].

النسبة

وقـد وقـع المتعاطفـان: (موسـى) و (هـارون) موقـع النسبة فـي قولـه سـبحانه وتعالى في معرض الكلام على قصة سيدنا موسى عليه السلام: مـع فرعـون (وَأُلْقِـيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَـى وَهَـارُونَ)[٣٤]،

---

(٣١) الكشاف: ١ / ٦٣٢، وينظر: التفسير الكبير: ١٢ / ٥١، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٦٢/٣.

(٣٢) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، بذيل الكشاف: ١ / ٦٣٢.

(٣٣) ينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٦٥.

(٣٤) الأعراف _ آ: ١٢٠ _ ١٢٢.

وقوله سبحانه وتعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)[٣٥]، حيث قدّم المعطوف عليه "المضاف إليه": (موسى) في آية الأعراف، وأخّر عنه المعطوف: (هارون)، وجرى عكس ذلك في آية "طه" حيث قدّم المعطوف عليه "المضاف إليه": (هارون)، وأخّر عنه المعطوف: (موسى).

ذكر بعض العلماء أن ذلك وقع رعاية" للفاصلة[٣٦].

صحيح أن أواخر الآيات في سورة الأعراف تقتضي أن يكون (هارون) في آخر الآية، وفي سورة طه تقتضي أن تكون كلمة: (موسى) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ خفي آخر يقتضي هذا التقديم والتأخير، ويتمثل ذلك في أن السياق في سورة الأعراف في الكلام على سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون، فقد قال موسى لفرعون إنه مرسل إليه وقومه من رب العالمين ليبلغهم رسالة ربه: (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[٣٧]، ثم طلب منه فرعون أن يأتي بالآيات الدالة على نبوته ورسالته إن كان صادقاً، وحصل ما حصل في إتيانه بالآيات، ثم ادّعاء الملأ من قوم فرعون بأن موسى ساحر: (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[٣٨]، ثم قال سبحانه

---

(٣٥) طه _ آ: ٧٠.

(٣٦) ينظر: مفتاح العلوم: ١١٥، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٦٧٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٦ / ٢٨.

(٣٧) الأعراف _ آ: ١٠٤ _ ١٠٥.

(٣٨) الأعراف _ آ: ١٠٦ _ ١١٠.

وتعالى بعد ذلك: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)[٣٩]، ثم قال سبحانه وتعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)[٤٠].

فنحن نرى أن سياق الآيات كلها في الكلام على سيدنا موسى، وقد ذكر اسمه بصورة صريحة في هذه الآيات، ولم يرد هنا ذكر لأخيه هارون إلا في آية واحدة، حيث لم يذكر اسمه بل أومئ إليه بـ (أخاه) وذلك في قوله سبحانه وتعالى: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)[٤١].

فالخطاب في سورة الأعراف كان موجهاً إلى موسى وحده في قصته، ولم يوجّه إلى هارون، فاقتضى كل ذلك أن يقدم (موسى)، ويعطف عليه (هارون) في هذا السياق. وقد يعرض هنا سؤال وهو: ما الفائدة في ذكر (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)؟ وكان يكفي أن يقولوا: (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، لأن رب العالمين هو ربّ موسى وهارون.

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) أن السحرة "لمّا قالوا: (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) قال لهم فرعون: إيّاي تعنون؟ فلما قالوا: (رَبِّ مُوسَى) قال: إيّاي تعنون؟ لأني أنا الذي ربّيت موسى، فلما قالوا: (وَهَارُونَ) زالت الشبهة، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون، وآمنوا بإله السماء"[٤٢].

أما السياق في سورة (طه) فهو في توجيه الخطاب إلى موسى وهارون معاً، وقد تكرر ذكر (هارون) في هذه السورة كثيراً، وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ

---

(٣٩) الأعراف ـ آ: ١١٥.

(٤٠) الأعراف ـ آ: ١١٧.

(٤١) الأعراف ـ آ: ١١١.

(٤٢) التفسير الكبير: ١٤/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

رسالته[٤٣]، من ذلك قوله سبحانه وتعالى على لسان موسى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٤٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٤٥]، وكان الجواب صادرا منهما معا: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾[٤٦]، وقد خاطبهما ربهما معاً فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[٤٧]، وأمرهما معا بقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[٤٨]، وقد نسب فرعون كليهما إلى السحر فقال: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[٤٩]، وقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[٥٠]، ولقد عاتب موسى أخاه هارون فقال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[٥١].

---

(٤٣) ينظر: التعبير القرآني: ١٩٩.

(٤٤) طه ـ آ: ١٩ ـ ٣٢.

(٤٥) طه ـ آ: ٤٢ ـ ٤٤.

(٤٦) طه ـ آ: ٤٥.

(٤٧) طه ـ آ: ٤٦.

(٤٨) طه ـ آ: ٤٧.

(٤٩) طه ـ آ: ٦٣.

(٥٠) طه ـ آ: ٩٠.

(٥١) طه ـ آ: ٩٢ ـ ٩٣.

فالقصة في سورة (طه) مبنية على التثنية، فاقتضى ذلك أن يقدم ذكر (هارون)، ويعطف عليه (موسى). جاء في "التفسير الكبير": "في قوله: (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) فائدتان.. الفائدة الأولى: وهي أن فرعون ادّعى الربوبية في قوله: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)(٥٢)، والإلهية في قوله: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)(٥٣)، فلو أنهم قالوا: آمنا برب العالمين، لكان فرعون يقول، إنهم آمنوا بي لا بغيري، فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة، والدليل عليه أنهم قدّموا ذكر (هارون) على (موسى) لأن فرعون كان يدّعي ربوبيته لموسى بناء على أنه ربّاه في قوله: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا)(٥٤) (٥٥).

ومما نحن بصدده في وقوع المتعاطفين موقع النسبة قوله سبحانه وتعالى في سورة يونس: (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)(٥٦)، وقوله سبحانه تعالى في سورة سبأ: (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)(٥٧)، حيث قدمت (الأرض) على (السماء) في آية (يونس)، وفي آية (سبأ) قدمت (السموات) على (الأرض).

و (يعزب) معناه: يبعد ويغيب، يقال: عَزَبَ يعزُب ويعزِب ـ إذا غاب(٥٨). فمعنى قوله سبحانه وتعالى: (لا يَعْزُبُ عَنْهُ): لا يبعد ولا يغيب عن علمه شيء(٥٩).

(٥٢) النازعات ـ آ: ٢٤.

(٥٣) القصص ـ آ: ٣٨.

(٥٤) الشعراء ـ آ: ١٨.

(٥٥) التفسير الكبير: ٢٢ / ٨٧.

(٥٦) يونس ـ آ: ٦١.

(٥٧) سبأ ـ آ: ٣.

(٥٨) لسان العرب: ١ / ١٨٣ مادة: عزب.

(٥٩) الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢٣١، ٨ / ٣١٩، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤ / ١٥٨.

والجار والمجرور في النصوص العربية وحدة تعبيرية رئيسة، ومكوّن بارز من المكوّنات النحوية المعبرة عن العلاقات الداخلية بين أجزائها[٦٠]. وقد قدّم الاسم المجرور بحرف الجر: (الأرض) على المجرور الآخر المعطوف عليه: (السماء) في آية (يونس) لأن سياق الكلام هنا على الناس أهل الأرض، قال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ)[٦١]، ثم قال سبحانه وتعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[٦٢]، ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[٦٣]، فنحن نرى أن سياق الكلام كله على أهل الأرض، ولذلك قدمت (الأرض) على (السماء). قال أبو السعود (ت ٩٥١هـ): "وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها"[٦٤].

(٦٠) دور الكلمة في اللغة: ٥١.

(٦١) يونس ـ آ: ٥٧ ـ ٦٠.

(٦٢) يونس ـ آ: ٦١.

(٦٣) يونس ـ آ: ٦٢ ـ ٦٤.

(٦٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤ / ١٥٨.

وقدّمت (السموات) على (الأرض) في آية (سبأ)، لأن سياق الكلام على الساعة، قال سبحانه وتعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(٦٥)، وأمر الساعة يأتي من السماء(٦٦)، كما قال سبحانه وتعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ)(٦٧)، وتقديم السموات على الأرض هنا يشاكل مع قوله سبحانه وتعالى في مفتتح السورة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)(٦٨)، وقوله سبحانه وتعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)(٦٩)، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): "فإن قلت: لِمَ قدمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في (سبأ): (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ)؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لمّا ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (لا يَعْزُبُ عَنْهُ) لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء"(٧٠) في آية يونس.

---

(٦٥) سبأ – آ: ٣.

(٦٦) ينظر: التعبير القرآني : ٢٢٩.

(٦٧) الزمر – آ: ٦٨.

(٦٨) سبأ – آ: ١.

(٦٩) سبأ – آ: ٩.

(٧٠) الكشاف: ٢ / ٢٤٣.

التراكيب

قال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٧١]، وقال سبحانه وتعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[٧٢]. قدّم التركيب الفعلي المكون من المتعاطفين: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) على التركيب الفعلي المعطوف: (وَيُزَكِّيهِمْ) في الآية الأولى، وجرى عكس ذلك في الآية الثانية، فقدّمت التزكية على تعليم الكتاب والحكمة. وأسلوب العطف سياق تنتظم الكلمات في بنائه، وتكشف عن تعاطف بين الأشياء، يتم من خلال العثور على علاقة تضايف جديدة بين الموجودات[٧٣]. والسر في هذا التقديم والتأخير بين المتعاطفات في الآيتين أن دعوة إبراهيم عليه السلام في الآية الأولى كانت قبل وجود الضلال في ذريته المدعوّ لها في الآية "وإنما تحصل تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من التعليم، وما يتلى عليهم من الآيات،لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا وقفوا للانقياد له"[٧٤]، لأن التزكية هنا معناها: التطهير من دنس الكفر والشرك والذنوب والمعاصي[٧٥]، والتزكية مرتبطة بأعمال الطاعات، قال سبحانه وتعالى:

---

(٧١) البقرة ـ آ: ١٢٩.

(٧٢) آل عمران ـ آ: ١٦٤.

(٧٣) بلاغة العطف في القرآن الكريم: ١٥١.

(٧٤) ملاك التأويل: ١ / ٢٣٦.

(٧٥) الكشاف: ١ / ٣١٢، الجامع لأحكام القرآن: ٢ / ١٣٠.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)(٧٦)، فتأخر هنا ذكر التزكية المسببة عمّا به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان، فجاء على الترتيب في بناء المسبّب على سببه(٧٧).

ولمّا كان مقصود الآية الثانية إنما هو ذكر امتنان الله سبحانه على المؤمنين، بهدايتهم بعد ضلال الكفر والشرك(٧٨)، وتعريفهم بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام في الآية الأولى، قدّم التزكية، وأخّر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون بعده ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم وامتنّ عليهم: (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، فكان الكلام في قوة أن لو قيل: "ويعلّمهم ما به زوال ضلالهم، وآخر ذكر السبب ليوصل بمسببه الأكيد هنا الذي كان قد وقع وهو رفع ضلالهم من عظيم محنته، ولو أخّر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا"(٧٩).

الخاتمة

لقد تمخض هذا البحث المتواضع عن نتائج أهمها ما يأتي:

١. تتعانق في البيان القرآني الكلمات فلا ينفك بعضها من بعض، ولا يمكن أن يحل لفظ مكان لفظ فيها، لأن كل كلمة مختارة لموضعها. والقرآن الكريم طراز وحده، وإنه لطراز يجعلنا نؤمن بأن القرآن ليس شعراً، وليس نثراً من مألوف

(٧٦) التوبة ـ آ: ١٠٣.

(٧٧) ملاك التأويل: ١ / ٢٣٦.

(٧٨) الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢٥٦.

(٧٩) ملاك التأويل: ١ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

نثر العرب، بل هو أسلوب خاص، يقف وحده، وله لإعجازه الذي انقطعت دونه آمال البشر في محاكاته أو الإتيان بشيء من مثاله.

٢. إنّ فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير، والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام. وقد بلاغ القرآن الكريم في هذا الفن – كما في غيره – الذروة في وضع الكلمات الموضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواقف التي وردت فيها اللفظة، ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله، فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره في التعبيرات كأنه – ولا مشاحة في التشبيه – لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

٣. يرتبط مفهوم التقديم والتأخير في المتعاطفات في القرآن الكريم بالمقام والسياق الذي يتطلب ذلك. وإذا كان هذا النوع من التقديم والتأخير يحقق تنويعاً في الشكل فإن ذلك لا يمكن أن يستقل بنفسه من غير ارتباط بالأجزاء المكوّنة للنظم.

٤. إن أسلوب العطف مما تتجلى فيه طبيعة الإعجاز في دراسة خصائص البيان القرآني، فهو يبثّ في البيان تناسقاً تعبيرياً وتلازماً دلالياً نابعاً من الإعراب المشترك، وهو يؤدي في الوقت نفسه وظيفة مهمة في خلق السياق الفني الذي تكتسب فيه الكلمات ارتباطاً جديداً، يخرج بها عن ارتباطها المعتاد، أو يوظف هذا الارتباط من اجل تحقيق سياق جديد.